إحسان
تزكية النفس.. وتصحيح المسار

التصرف في الكون

حكم من ادعى أن اللّٰه أعطى حق التصرف في ملكه للسيد البدوي

العلامة محمد رشيد رضا

فبشر عباد الذين يستمعون
القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله
وأولئك هم أولو الألباب

المنار

١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء
ومن يؤت الحكمة فقد
أوتي خيراً كثيراً وما
يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام إن للإسلام صُوًى « ومناراً » كمنار الطريق

٢٩ ذي القعدة ١٣٤١ — ٢١ السرطان (ص ٢) سنة ١٣٠٢ هش ١٤ يوليه ١٩٢٣

فتاوى المنار

التصرف فى الكون

(وحكم من ادعى ان الله اعطى حق التصرف فى ملكه للسيد البدوي)

(س ٢١)

جاء في عدد جريدة الاهرام التي صدرت في ٢٤ ذي القعدة و٩ يوليو تحت عنوان « افتونا برأيكم » رسالة من مراسلها في بركة السبع هذا نصها

« حدث امس في جامع الدبابة نزاع بين المصلين سببه أن امام البلدة عند الصلاة في خطبة الجمعة قال : ان الله سبحانه وتعالى اعطى السيد احمد البدوي حق التصرف بملكه العزيز

« فقاطعه استاذ آخر وقال له انه كاذب اذ انه طبقا لشريعة الاسلام لا يكون لله شريك

« فترتب على ذلك قطع الصلاة بضع دقائق حصل في فترتها نزاع بين المصلين ولما وصل ضابط بوليس بركة السبع افهمهم ان المسألة دينية لا تستلزم الا الاستفتاء وتمكن من اصلاح ذات البين بين الاستاذين فاستحق حضرته ثناء الحاضرين . فما رأي اصحاب الفضيلة العلماء في هذا الخلاف في الرأي اه

وقد طلب منا بعض علماء الازهر وغيرهم أن نجيب عن هذا السؤال فنقول و بالله التوفيق ونسأله الهداية للصواب

الجواب

المراد بالتصرف في الكون ان الله تعالى قد وكل أمور العالم الى بعض

الصالحين، من الاحياء والميتين فهم يفعلون في الكون ماشاؤا بالخوارق لا بالاسباب المشتركة العامة من بسط الرزق لبعض الناس وقدره أي تضييقه على بعض . ومن شفاء المرضى، واحياء الموتى واماتة بعض الاصحاء الذين ينكرون عليهم أو الذين يستعديهم عليهم بعض زوارهم ، والمتقربين بالنذور والهدايا لاضرحتهم . وغير ذلك من أمور الناس وامور الكون كالرياح والبحار والجبال والحيوان والنبات . كما حكي عن بعضهم انه مد رجله مرة وقال: ان سفينة خرقت في البحر واشرفت على الغرق فاستغاث به بعض راكبيها فمد رجله وسد بها ذلك الخرق ، وذكروا ان ذلك المستغيث رأى عقب استغاثته رجل الشيخ قد سدت ذلك الخرق ونجت السفينة

وسمعت مرة امرأة تستصرخ المتبولي وتستغيث به بوجد وجؤار تستعديه على رجل آذاها « تحيله عليه » لينتقم منه . فقلت لها لماذا لم تطلبي من الرب تعالى ان يجازيه؟ فقالت ما معناه: ان الله يمهل والمتبولي لا يمهل واستدلت على ذلك بان رجلا سرق فسيخة فأحال عليه صاحبها المتبولي فما عتم ان قيأه اياها

وأمثال هذه الحكايات عنهم كثيرة جدا لعله لا يوجد أحد لم يسمع منها ما لم يسمعه غيره ، دع ما يتداوله الكثيرون في كل بلد وكل جيل مما يعدونه متواترا ، وما المتواتر الا نقل الكثيرين عن المفتري الاول الذي اختلق الحكاية أو تخيلها أو توهمها فقصها وتناقلها عنه امثاله

وليست هذه الحكايات كلها من مفتريات العوام الاميين ومن هم على مقربة منهم في قبول الاوهام والخرافات ، بل تجد كتب المتصوفة محشوة بها لانها ادخلت في عقائد الملة من أبواب ما يسمونه كرامات الاولياء، وهي تكثر في المسلمين على نسبة اعراضهم عن الدين علما وعملا ، فالمنقول عن الصحابة (رض) وهم خير هذه الامة باجماع أهلها تبعا للنص على ذلك من النبي (ص) قليل جدا وأقله ما روي باسناد آحادي قوي ، وليس فيه شيء قطعي ، وما روي عن التابعين أكثر ولكنه لا يعد شيئا يذكر في عدده ولا في نوعه بالنسبة الى ما اختلق

في القرون الوسطى وتسلسل الى هذا العصر

ففي بعض كتب الرفاعية أن الشيخ أحمد الرفاعي : كان يفقر ويغني ، ويسعد ويشقي ، ويميت ويحيي — أي وان حصر القرآن مثل هذا في عمل الخالق بقوله (وانه هو أغنى وأقنى * وانه هو أمات وأحيا) وانه وصل الى درجة صارت السموات السبع في رجله كالخلخال ، وان الله تعالى وعده بان من لمسه لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة وان هذا له ولمريديه وأتباعه الى يوم القيامة . وذكروا أن سبب اخباره اياهم بهذه « الكرامة » أنه كان قد لمس سمكة حية فوضعوها بعد لمسه اياها على النار لشيها فلم تؤثر فيها النار فسألوه عن سبب ذلك فذكره

وفي بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي رحمه الله تعالى ان مريداً له مات فطلبت امه منه احياءه فطلب روحه من ملك الموت فأجابه بأنه لا يعطيه الا باذن من الله تعالى وكان ملك الموت جمع الارواح التي قبضها يومئذ في زنبيل وطار بها الى السماء ليستأذن الرب ما ذا يفعل بها فطار الشيخ عبد القادر في أثره وجذب الزنبيل منه واخذ روح مريده فتناثرت منه جميع الارواح فذهب كل روح الى جسده فحيي جميع من مات في ذلك اليوم كرامة للشيخ عبد القادر . ولا اذكر هنا ماقاله مفتري الحكاية في شكوى ملك الموت لربه تعالى من اعتداء الشيخ عليه « في حال التلبس باداء وظيفته » — كما يقال في اصطلاح اهل هذا العصر — وما افتروا على الله تعالى في جوابه — لا اذكره أدبا مع الرب عز وجل وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا

وقد شاع بين الناس ان الاقطاب الاربعة المتصرفين أو « المدّركين بالكون » كما يقولون هم السادة الجيلاني والرفاعي والبدوي والدسوقي فلا يجري في العالم العلوي ولا السفلي شيء الا بتصرفهم ، وعلى هذا يكون سائر المتصرفين في الكون عمالا أو جندا لهم

ما ذا كان من تأثير فشو هذا الاعتقاد في المسلمين ؟ إن ألوف الالوف منهم

باتوا لا يعنون أقل عناية بشؤون أمتهم العامة، ولا بشؤون أنفسهم الصحية ولا الدينية ولا الاجتماعية الا ما تقتضيه الضرورة والعادة من القيام بضروريات المعاش والقناعة منه بأخسه لان كل ما عدا ذلك موكول الى اولئك الميتين فاذا وقع أحدهم في شدة أو مرض أو حاجة استغاث بأحد المدّركين بالكون أو أحد أعوانهم وجندهم من المشايخ الميتين لينقذه من شدته او يشفيه هو أو ولده من مرضه أو ينتقم له من عدوه أو .. أو .. واذا عظم الخطب يتقرب اليه بعجل أو خروف ينذره له ، واذا أبطأت الاغاثة يشد رحله الى قبره ويستنجده بالقرب منه مع اعتقاده ان القرب عنده كالبعد في إحاطة علمه بالغيوب كاحاطة قدرته بالعالم ، ولذلك يقولون للولي عند قبره : « ياسيدي العارف لا يعرّف » وقد صح عندنا ان بعض اصحاب العمائم الكبرى يقولون ذلك ، ومن المروي في الكتب عن الجيلي انه متصرف في اثني عشر عالما احاطيا السموات والارض واحد منها

وناهيكم بشد الرحال الى احتفالات الموالد التي تتخذ أعياداً ومواسم دينية لهم ، واجتماع مئات الالوف من الرجال والنساء والاطفال في كل مولد يقام لهؤلاء المتصرفين في الكون الذين يقضون مصالح الناس في الدنيا وينجونهم من عذاب الله في الآخرة مهما تكن جرائمهم وفواحشهم ، ومن المشهور الذي يكاد يبلغ درجة التواتر أن المعسرين منهم يقترضون الاموال بالربا الفاحش لاجل انفاقها في المولد ، على أن الكثيرين من هؤلاء الذين يسخون بالالوف في هذه السبيل وان رهنوا في ضمان قروضها أطيانهم أشحة بخلاء ربما يقتل أحدهم أخاه أو أباه لاجل جاموسة أو مال قليل

هذا تذكير وجيز بمعنى التصرف في الكون وماله من سوء التأثير في افساد الدين والدنيا — وتجد رجال الشرع يشاركون رجال الطرق المنسوبة الى الصوفية في اقامة هذه الموالد وحضور دعواتها، وأكل نذورها، حتى ما كان مسيبا للسيد البدوي من العجول والخرفان ، كالسوائب التي كانت تسيب للاصنام ، ولا يرون في هذا حرجا ولا افسادا ، لانه داخل عندهم في باب كرامات الاولياء

الواسع الذي لاحد له ، وقد قال صاحب الجوهرة تبعا لغيره من مؤلفي العقائد رضي الله عنهم وارضاهم

وأثبتن للاوليا الكرامة   ومن نفاها فانبذن كلامه

كما أن منكرات القبور التي تعد بالعشرات والمئات في بنائها ووضع السرج عليها واتخاذها مساجد وتشييدها وما فيها من مفاسد اجتماع النساء والرجال والاطفال كل ذلك يقرر ولا ينهى عن شيء منه لانه يدخل في باب ما ورد من استحباب زيارة القبور للرجال لاجل تذكر الموت والآخرة فالامر المستحب الواحد يرتكب لاجله مالا يعد من كبائر المعاصي التي لعن الشارع مرتكبيها كمتخذي القبور مساجد وواضعي السرج عليها وزيارة النساء لها وغير ذلك مما وردت فيه الاحاديث الصحيحة

اعطاء الله حق التصرف في ملكه للبدوى

بعد هذا أقول كلمتي في موضوع السؤال وأقفي عليها بكلمة في الكرامات:

موضوع السؤال زعم ذلك الخطيب أن الله تعالى قد أعطى السيد أحمد البدوي الميت صاحب القبر المشهور في طنطا حق التصرف في ملكه العزيز

ليست هذه المسألة مسألة جواز الكرامات ووقوعها وما فيها من خلاف لا يعد من أصول الدين وعقائده ولا من فروعه ، بل هي مسألة تتعلق بأصول عقائد الدين لانها اسناد شيء الى الله تعالى لا يمكن العلم به إلا منه عز وجل ، وقد انقطع الوحي عنه تعالى بموت خاتم النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، ولا طريق للعلم الصحيح عنه تعالى غير الوحي ، وقد قال تعالى في بيان أصول كبائر الكفر والفسق (قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون)

بين بعض المحققين ان هذه المحرمات في دين الله تعالى على ألسنة جميع رسله قد ذكرت على طريقة الترقي في الحظر من المعاصي القاصرة الى المتعدية

كالبغي على الناس ، ومن الكفر القاصر على صاحبه كالشرك الى المتعدى الضرر كالقول على الله بغير علم ، فانه أصل جميع الفساد في الدين وجميع البدع

والقول على الله بغير علم قسمان أحدهما خاص بالعقائد كالكلام في ذاته وصفاته وأفعاله ومنه نازلة الفتوى ، ومثلها القول باتخاذ الولد قال تعالى (١٠:٦٨) وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ـ سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الارض، ان عندكم من سلطان بهذا . أتقولون على الله ما لا تعلمون) نفى أن يكون عندهم سلطان — أي برهان قطعي — على هذا القول ووبخهم ان قالوا على الله ما لا يعلمون، بعد أن بين البرهان على بطلان قولهم بانه هو الغني الكامل غناه المطلق وبأن مافي السموات والارض أي العالم كله ملك له ، وهذا عين البرهان على بطلان اتخاذ اناس يتصرفون في ملكه ، ومن أصول المناظرة أن البينة على المدعي ويكفي المنكر المنع ، ولكن القرآن هداية لا جدل، ولذلك بين بطلان الدعوى في نفسها بالدليل، و بين أنه لا دليل عليها ، وان مثلها لا يصح أن يقال بالظن والوهم وإنما يطلب فيه العلم القطعي، كما قال تعالى (٥٣ : ٢٨ ومالهم به من علم أن يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا)

ومن هذا الباب قوله تعالى (في ١٠ ١٨ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) فقولهم إنهم شفعاؤهم عند الله من القول على الله بغير علم ، فان العلم بالشفيع المعين للمشفوع له المعين خاص به تعالى ، اذ لا يشفع أحد عنده الا باذنه ، وهو لا يأذن بأصل الشفاعة الا لمن ارتضاه شفيعا ، ثم لا يأذن له بان يشفع الا لمن كان سبحانه راضيا عنه ، كما قال في شأن عباده المكرمين (في ٢١: ٢٧ لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون ٢٨ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)

والقسم الثاني من القول على الله بغير علم خاص بالتشريع كابتداع عبادة لم يشرعها الله تعالى البتة أو شرع أصلها فجيء بها على غير الصفة التي شرعها

كاذكار أهل الطريق بألفاظ لم ترد في الشرع مع الرقص والغناء وغير ذلك مما فصله الشاطبي في كتابه الاعتصام وابن الحاج في المدخل وغيرهما من الاعلام ــ وكتحريم ما لم يحرمه الله تعالى في وحيه . قال تعالى في (٢١:٤٢ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) وقال في (١٦ : ١١٦) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب) الآية

فعلم من هذه الآيات وما في معناها أن القول على الله بغير علم أغلظ أنواع الكفر وأشدها افسادا لدين الناس ولعقولهم وفطرتهم ، وانه يسمى شركا ويتضمن ذلك عد فاعله شريكا لله تعالى ومن قبل تشريعاً من غير الله فقد اتخذه ربا وشريكا وقد ورد في تفسير النبي (ص) لقوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ان معناه انهم كانوا يتبعونهم فيما يحلون لهم ويحرمون عليهم. ومن شرع للناس عقيدة لم يشرعها ربهم لهم فهو أجدر بانتحال الربوبية جعل نفسه شريكا للرب تعالى ممن يشرع لهم تحريم شيء من طعام أو شراب مثلا

وهل عنى هذا من قال لخطيب الفتنة المضل ليس لله شريك ، رداً لقوله إن الله اعطى السيد البدوي حق التصرف في ملكه العزيز ؟ أم عنى أن هذا التصرف يقتضي أن يكون البدوي شريكا لله تعالى في تدبير أمر عباده ؟ أياما عنى فله وجه وجيه

ذلك بان الذين يقولون بهذا التصرف لا يعنون به أنه منتظم في سلسلة الاسباب والمسببات العادية كتصرف البدوي في رعي ماشيته وسوقها حين يريح وحين يسرح ، وتصرف الفلاح في أرضه حين يعزق وحين يزرع ، وانما هو عندهم بسلطة غيبية هي فوق الاسباب العادية والسنن الكونية المعروفة للبشر ، في الاعمال التي يتناولها كسبهم ، وهذه السلطة هي الخاصة بالخالق عز وجل ، بمعنى انه ليس للناس فيها عمل ولا كسب ، وهي التي تمتاز بها العبادات من العادات ، فكل دعاء أو تعظيم قولي او عملي يوجهه الانسان الى من يؤمن بان له سلطانا غيبيا هو فوق الاسباب المشتركة بين الخلق فهو عبادة له والا فلا ، فالفرق جلي

بين من يدعو ميتا لشفاء مرضه أو مرض ولده مثلا أو للانتقام من عدوه أو ينذر له لاجل ذلك و بين من يدعو الطبيب للمعالجة او يشكو الى الحاكم ظالمه وسواء اعتقد من يدعو الميت انه يفعل ذلك وحده بقدرته الذاتية أو اعتقد انه يفعل ذلك بتأثيره فى علم الله تعالى وارادته بان يكون واسطة وسببا لان يفعل سبحانه مالم يكن ليفعله لولاه ، وذلك يقتضي تأثير الحادث في القديم وتعليل افعاله تعالى بالحوادث ، وكون هذا الفعل لم يقع الا باشتراك سلطتين غيبيتين هما فوق سنن الخالق في الاسباب والمسببات هو صورة هذا الوجه في المسألة ولم يكن مشركو العرب وأمثالهم يقولون بمساواة آلهتهم لرب العالمين في شيء بل كانوا يقولون انه ربهم وخالقهم وهم شفعاء عنده فقط . على ان هذا التحليل لايخطر في بال أكثر الذين يدعون هؤلاء الموتى وينذرون لهم ويشدون الرحال الى قبورهم خاشعين متضرعين ، تاركين للصلاة مقترضين بالربا مرتكبين لكثير من المنكرات ارضاء لهم ، لاجل ان يقضوا لهم حاجتهم . وانما هو تأويل من تلقوا عن شيوخهم كتبا في العقائد قررت فيها وحدانية الافعال لله تعالى بما ينافي ما تلقوه ورسخ في أنفسهم ممن نشؤا بينهم من تصرف بعض هؤلاء الشيوخ الميتين في الكون — فاخترعوا هذه التأويلات للجمع بين العقيدتين

ولئن سألتهم ليقولن انه ليس لهم أدنى تأثير في ارادة الله تعالى ولا في أفعاله وانما هم أسباب خفية يخلق الله الاشياء عندها لا بها ، كما يقول أكثرهم في الاسباب الجلية العادية كاحراق النار وارواء الماء ، ولو كان هؤلاء المفتونون بالقبور يعتقدون انه لا تأثير لاصحابها البتة لما وجد شيء من هذه الخرافات والبدع التي أفسدت الامة ولوقف الناس في زيارة القبور عند هداية السنة ، يزورونها لتذكرة الآخرة ويدعون لاربابها ولا يدعونهم ، ويشفعون لهم بالدعاء ولا يستشفعون بهم ، لان هذا هو الوارد في السنة . على أن الاسباب الظاهرة من عالم الشهادة قد علم كونها اسبابا بالمشاهدة والتجربة المطردة . وأما تصرف الموتى فهو امر غيبي لم يثبت بالمشاهدة ولا بالتجربة المطردة ، ولا جاءنا الوحي من عالم الغيب والشهادة

بانه جعلهم أسبابا لشيء من ذلك ، بل كل من التجربة الدقيقة في الامم المختلفة ومن الوحي الصادق يدل على خلاف ذلك

اما التجربة فاننا قد علمنا من تاريخ الامم ان هذا الاعتقاد انما يفشو ويروج فيها في زمن الجهل والانحطاط فتكون به أشقى الامم وأشدها خسارا في دينها ودنياها وصحتها ومعيشتها، فالمسلمون لم يكونوا كذلك في خير القرون التي فتحوا بها الممالك ودونوا العلوم واسسوا الحضارة فلم يرو لنا أصحاب الصحاح ولا السنن ان الصحابة كانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره الشريف ولا عند اشتداد الخطوب في الحروب ولا في حالة المرض لاجل النصر والشفاء ولا روى التاريخ لنا ذلك عن التابعين ولا تابعيهم من علماء الامصار كأئمة الفقه الاربعة وأئمة آل البيت النبوي رضي الله عنهم أجمعين . بل رووا لنا ان النبي (ص) وأصحابه كانوا ينوطون الاشياء باسبابها وانهم لما قصروا فيها يوم أحد انكسروا ونال المشركون منهم حتى ان النبي(ص) شج رأسه الشريف وكسرت سنه . ولما تعجب الصحابة وتساءلوا في ذلك أنزل الله تعالى (او لما أصابتكم مصيبة قدأصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم)

وقد فشت هذه البدع في الامم الوثنية فالكتابية من قبلنا فكان فشوها فيهم من أسباب ضعفهم والعون لسلفنا على السيادة عليهم ، فلما ضعفت هذه العقائد الخرافية فيهم بارتقائهم في علوم الكون وسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات، وقل فيهم من يعتمد في اصلاح حال الافراد والجماعات ، على تصرف الاولياء الاحياء والاموات ، بعد أن سرت الينا منهم هذه الخرافات ، دالت لهم الدولة علينا، وصاروا أحسن منا صحة ،وأشد قوة ، وأعلى سيادة ، وأرفه معيشة

وأما الوحي فالله تعالى قد أمر خاتم رسله الذي أكمل دينه واتمه على لسانه وهديه ان يخاطب من آمن به بقوله عز وجل في (٦ : ٥٠ - قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب، ولا أقول لكم انى ملك) فقد نفى أن تكون عنده خزائن رزق الله يتصرف فيها ويأتي ما اقترحوا عليه من الآيات لاثبات رسالته

من تفجير الينبوع في مكة وايجاد جنة فيها يفجر الانهار خلالها تفجيراً كما قال الفخر الرازي ، ونفى أن يكون يعلم الغيب وأن يكون ملكا كما اقترحوا أو يقدر على ما يقدر عليه الملك ، ثم أمره أن يقول بعدذلك (ان أتبع الا ما يوحى الي) كما قال في الرد على ما اقترحوه عليه من الآيات التي أشرنا اليها (سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا) أي فهو من حيث انه بشر لا يقدر على مالا يقدر عليه البشر ومن حيث انه رسول ليس عنده الا ما يوحيه الله اليه فيبلغه ويبينه للناس. فاين هذا ممن يدعون أن السموات السبع في رجل أحدهم كالخلخال الخ

وأمره أيضا أن يخاطب الناس بقوله تعالى (٧ : ١٨٧ قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) و بقوله (قل اني لا أملك لكم ضراً ولا رشدا) أي ولا نفعاً ولا غياً ففي الآية احتباك . أي وانما الذي يملك ذلك كله الله تعالى . ونفي الاغواء لا يقتضي جواز وقوعه منه (ص) فهو كنفي الظلم عن الرب تعالى بين به الحق الواقع فلا يقتضي انه مظنة الوقوع ، والمراد هنا ان هداية الناس وضلالهم ونفعهم وضرهم كلها بيد الله تعالى من حيث انه هو الخالق المدبر الواضع للسنن والاسباب لكل من ذلك فليس وراء هذه الاسباب تصرف لغيره

هذا نوع من انواع دلالة الوحي على بطلان تلك الدعوى أعني نفي علم الغيب ونفي القدرة على التصرف في ملك الله وخزائن رزقه عن الرسل عليهم السلام . ويتصل به نوع آخر وهو كون الآيات (المعجزات) التي يؤيدهم الله تعالى بها لاتتعلق بها قدرتهم وانما هي لله وعند الله وبيدالله عزوجل ، والآيات فيها معروفة ، وهناك نوع ايجابي أقوى من هذا ويجامع ما قبله وهو دلائل وحدانية الافعال التي فسرها الاشعرية بانه لا فعل لغير الله وأن الله تعالى يخلق المسببات عند الاسباب لابها ، وهل يمكن أن يطلب المؤمن بهذه الوحدانية شيئا من الموتى

وهم لم يصح شرعا ولا علما أن الله جعلهم أسبابا ؟

كرامات الاولياء

علم مما مر أن فتنة الغلو في كرامات الاولياء قد هدمت من عقول الالوف وألوف الالوف من الناس عقيدة تجريد التوحيد وهو أساس الدين الذي بني عليه غيره منه ، وأعلى علوم البشر ومعارفهم التي يتحقق بها تكريم الله تعالى لهم باعتاقهم من الذل والعبودية لغيره عز وجل . ونسخت من أذهانهم وقلوبهم الآيات المحكمة في العقائد الالهية ومعنى الرسالة ووظائف الرسل ، ووضعت في مكانها ما لا يحصى من الخرافات والاوهام التى أفسدت عليهم أمري الدين والدنيا ، ويزعم كثير من أنصار هذه الخرافات المعممين أن تشكيك العوام فيها يفضي الى شكهم في الرسالة وفي سائر أصول الدين ، وقد جهلوا أن هذا الغلو فيها هو الذي أفسد عقائد جماهير العوام وأعمالهم ونفر جماهير الخواص الذين تلقوا العلوم العقلية والكونية والاجتماعية من الاسلام نفسه ، اذ حسبوا أنه مجموعة خرافات لا تليق الا بامثال هؤلاء العوام

ولو صح أن بعض هؤلاء لا يقنعه بأصل الاسلام الا هذه الكرامات لكان ذلك مفسدة أخرى يطالب من العلماء ازالتها وبناء العقيده على البراهين العقلية والنقلية القطعية وهو الواجب الذي قرره جميع العلماء والا فان التشكيك في هذه الكرامات من أسهل الامور وقلما ترى أحداً من المتعلمين المتدينين يصدق شيئاً مما يرويه هؤلاء العوام منها دع غير المتدينين الذين لا شبهة لأكثرهم على الدين الا جعلها من أركانه وأسس بنيانه

ما هذه الكرامات ؟ انها ليست من عقائد الدين وانما تذكر في كتب الكلام بالتبع لبحث معجزات الرسل كما يذكر السحر وغيره مما عدوا من خوارق العادات . وقد اختلف نظار العلماء في جوازها ، واختلف المجوزون لها في وقوعها ، واختلف القائلون بوقوعها هل تقع في جميع خوارق العادات التي يؤيد الله تعالى بمثلها الرسل أم لا تقع الا في أمور محدودة ؟ وهل تكون بقصد

من الولي واختيار أم بغيرهما ؟ وهل تتكرر أم لا وكيف يكون المكرر من الخوارق

جاء في المواقف وشرحه ما نصه : (المقصد التاسع) في كرامات الاولياء وأنها جائزة عندنا خلافا لمن منع جواز الخوارق ، واقعة خلافا للاستاذ أبي اسحق والحليمي منا، وغير أبي الحسين من المعتزلة اه فهذان امامان من اكبر أئمة الاشعرية ينكران وقوع الكرامات ، ولم يكن ذلك مطعنا في دينهما ولا مسقطا من مكانتهما من أئمة اهل السنة ، بل ظلا في الذروة وكان أبو اسحق الاسفرايني هذا امام الائمة في عصره ، ولا يزال يعبر عنه في كتب العقائد والاصول بالاستاذ فاذا أطلق لا ينصرف الى سواه

لا تتسع هذه الفتوى لتمحيص القول في مسألة الكرامات وقد كتبنا من قبل مقالات كثيرة فيها خاصة ، وألممنا ببعض مسائلها في مقالات أخرى نشرت في مجلدات المنار المتفرقة . منها بضع مقالات بعنوان الكرامات في المجلد الثاني لخصنا فيها ما أورده التاج السبكي في طبقات الشافعية من الخلاف فيها ، وحجج منكريها ومثبتيها ، والمأثور منها ، ومنها احدى عشرة مقالة بهذا العنوان في المجلد السادس ذكرنا فيها ما أورده السبكي من أنواعها ، وتأويل ما ورد منها على تقدير صحة الرواية فيه . ومنها مقالات أخرى بعنوان الخوارق والتصرف في الكون والموالد وغير ذلك

وفي هذه المقالات فوائد كثيرة من المنقول والمعقول تعطي المطلع عليها بصيرة في الدين والدنيا نشير الى بعضها بالارقام

(١) ان ما ينقل الينا من الوقائع المخالفة لسنن الله تعالى في الخلق وفي سير الاجتماع البشري يجب أن لا يقبل فيجعل محلا للبحث فيه الا اذا ثبت ببرهان يقيني لانه جاء على خلاف الاصل من المعقول والمنقول ، وأعني بالمنقول ما ثبت في نص القرآن من أن سنن الله تعالى في نظام الخلق وشؤون الامم لا تتبدل ولا تتحول

(٢) إن كثيرا مما يظهر بادي الرأي أنه من خوارق العادات لا يكون

كذلك في الواقع ونفس الامر ، بل منه شعوذة وتخييل ، ومنه ماله أسباب خفية من طبيعية وصناعية ، كقوله تعالى في الحبال والعصي التي ألقاها سحرة فرعون (يخيّل اليه من سحرهم أنها تسعى) وقد أثبت صاحب جامع التواريخ أو (نشوار المحاضرة) عن معاصري الحلاج وكذا الحافظ ابن الجوزي أن كراماته كلها كانت من قبيل الحيل وقد اكتشفوا حيله في عصره كالذى عرف الدار والبستان الخفيين اللذين كان يحفظ فيهما السمك الحي والفاكهة والاطعمة فيأتي بها عند الحاجة وانذره الحلاج القتل اذا هو فضحه وقد ذكرنا في مقالات المنار شواهد كثيرة للحيل ولما في معناها من الخواص الكونية

(٣) ان روايات الكرامات مأثورة عن جميع الامم الوثنية والكتابية وان دعواها تكثر في العصور التي يضعف فيها العلم والدين في الامم ويكثر الكذب والدجل ، ويقل في عصر العلم وعهد التقوى ، ولذلك ترى المروي عن الصحابة والتابعين منها قليلا ، وقد زعم بعض الناس أن سبب هذا حاجة الناس في زمن الجهل والفسق الى ما يقوى به إيمانهم . ولكننا نرى أنها لا تزيد الناس في هذه الحال الا فسقا وجهلا ودجلا وغرورا وضعفا في الدين والدنيا ، وخضوعاً للدجالين الذين يعبثون بأموال الناس وأعراضهم ، كما أشرنا اليه في أوائل الفتوى

(٤) أن الاصل في الكرامات أن تكون خفية وان الاولياء لا يدعونها ولا يظهرونها الا لضرورة حتى قال السبكي انه « لا يجوز اظهارها الا بسبب ملزم ، وأمر مهم » ، فاين هذا وذاك من معمل الكرامات الكبير بل معاملها (فبريكاتها) الكثيرة المعبر عن صناعاتها الدائمة بالتصرف في الكون ؟ الذي ينقلون عن كل قبر من قبور عماله الكثيرين ما لا يحصى من الكرامات لاحقر الاسباب كاصابة زيد من الناس بداء قتال أو مرض عضال أو اماتته فجأة أو اصابته بجائحة في زرعه أو هلاك لبهائمه لاجل استغاثة خصم أو عدو له بولي يستعديه عليه ولو بالباطل ، أولانه قال كلمة اعتراض واساءة أدب مع صاحب القبر ، كأن أولياءهم من الاشرار الذين خلقوا للاذى والضرر . دع قسم المستشفيات من معمل التصرف

في الكون الذي يبرىء كل يوم ألوفا من المرضى الذين لا يذكر مرض أجسامهم في جانب أمراض عقولهم وأديانهم

(٥) كون الكرامات الحقيقية لا تتكرر وعلله الشيخ محيي الدين بن عربي في الفتوحات المكية بان ما يتكرر يكون معتاداً فلا يدخل في خوارق العادات ، ونحن نرى أن ما يدّعونه للمتصرفين في الكون من صادرات المعامل الدائمة يتكرر في كل يوم وفي كل ساعة

(٦) ان أكثر ما فشا ويتناقله الناس من الامور التي يسمونها كرامات والكثير مما يصح نقله من المصادفات التي يكثر وقوعها ، وانما الاعتقاد هو الذي يحمل غير المدقق في معرفة أسبابها على جعلها من الكرامات ، والجاهل بالمنطق لا يفرق بين القضية الشرطية الحقيقية كقولهم : اذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود، والشرطية الاتفاقية كقولهم: ان كان الانسان ناطقا فالحمار ناهق. فاذا استعدى أحد شيخا (وليا) على عدوه (أو حاله عليه كما يقولون) — أو اذا أنكر منكر على الشيخ — وأصابه عقب هذا أو ذاك مصيبة في نفسه أو أهله أو ماله قال أصحاب العقول الخرافية انه تصرف به ، وقد وقع مثل هذا لنا ولاهل بيتنا كما وقع لغيرنا مراراً ولم نعده من الكرامات . ولو شئنا أن نعد لانفسنا عشرات من الكرامات التي يثبت مثلها لدجال الشيخ يوسف النبهاني لفعلنا وكنا أصدق منه في النقل ، وأقدر على الاتيان عليه بالشهود العدول من الاحياء

(٧) ان ما يعد بادي الرأي خارقا للعادة يجوز أن يكون له أسباب خفية ، ومنه ما يسميه علماء الكون فلتات الطبيعة. ومنه ما هو من خواص الانفس البشرية التي يتفاوت فيها الناس تفاوتا بعيداً — كالمكاشفة والتأثير النفسي في بعض الناس ولا سيما أصحاب الارادات الضعيفة وناهيك باصحاب الامزجة العصبية من النساء وبعض الرجال الذين يعتقدون أن لزيد من الاموات والاحياء سلطانا غيبيا يتصرف به في الكون ، فان هؤلاء يكونون سريعي التأثر والانفعال بما يعتقدون تأثيره حتى ان بعض الاطباء يعالجونهم بما للاوهام من السلطان على أنفسهم ،

ولذلك تجد هذه الانواع كثيرة الوقوع

وقد وضحنا هذه المسألة في المنار مرارا ، وشبهنا فيها أرواح البشر وأنفسهم بأجسادهم في تفاوت الافراد في قوتها وضعفها واختلاف استعدادها واستعمالها لهذا الاستعداد .

مثال ذلك أن الروح هو المدرك من الانسان وادراكه غير مقيد لذاته بالحواس التي هي آلات له ما دام محبوساً في الجسد بل يمكن أن يدرك بعض الامور بذاته في نوم أو يقظة ، وقد يدرك بعض الامور قبل وقوعها ، وبينا أن هذا النوع من الادراك ليس من العلم بالغيب الذى استأثر الله تعالى به ، وانما هو غيب اضافي لا حقيقي ، وان قلة هؤلاء المدركين لهذه الامور لا ينافي ان ادراكها مما أودع في الفطرة البشرية وجعل من مقدورها ، على أنها في الغالب تقع بدون ارادة من صاحبها ، ومن غير الغالب أن تكون بتوجيه الارادة الى ادراك الشيء وحصر الهمة في التوجه اليه وصرفها عما عداه حتى اذا انحصر التوجه وصرفت عن الفكر الشواغل ، أدرك الروح ما توجه اليه ادراكا ما ، وضربنا له المثل في انفراد بعض الافراد بالقوة العضلية النادرة كقوة القيصر الروسي اسكندر الثالث الذي كان يأخذ بيده الريال الروسي فيجوفه باصابعه فيجعله كفنجان القهوة ويضع فيه زهرة يتحف بها بعض النساء في مجالسه ، وكان الشيخ علي العمري عندنا في طرابلس الشام يلوي باصابعه حديد النوافذ ويمسح القطعة من النقد فيزيل حرشة نقشها ، وله غرائب في قوة العضل كانوا يعدونها من كراماته الكثيرة ولم يعد أحد مثلها من القيصر الروسي كرامات له . ولا غرو فالمتكلمون يجوزون وقوع خوارق العادات من كل أحد حتى الفساق والكفار ووضعوا لها اسماء تختلف باختلاف حال من وقعت لهم أو على أيديهم

هذا وان الروحيين من المتقدمين ومن فرنجة هذا العصر الذين يقولون إن أرواح الاحياء قد تتجرد من المادة الكثيفة وان أرواح الموتى قد تتجلى في مادة لطيفة أو كثيفة تستمدها عن عناصر الكون لم تثبت أحد منه [illegible]

أعطيت التصرف في أمور العالم ونفع الناس وضرهم بل صرح بعضهم بانها لم تعط هذا ولا تقدر عليه .

وما نقل عن بعض كبار الصالحين العارفين من ادعاء ذلك فأ كثره كذب وزور لا تصح به الرواية عنهم، ومنه ما عدوه من الشطح الذي يصدر عنهم في حال غيبة ثم يتوبون منه ، ومنه ما يقصد به الاسباب الظاهرة كالبيتين المنسوبين الى السيد الجيلي قدس الله روحه

على بابنا قف عند ضيق المناهج تفز بعليّ القدر من ذي المعارج
ألم تر أن الله أسبغ نعمة علينا وولانا قضاء الحوائج

فقد كان رحمه الله تعالى ذا مقام رفيع عند الخلفاء وكبار الحكام فاذا أوصى بكشف ظلامة لا ترد وصيته ، وقد كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ممن يصدق عليه معنى هذين البيتين، على أن علماء النقل قد قالوا ان الجيلي كان ذا كرامات صحيحة ومنهم شيخ الاسلام ابن تيمية ولكن أكثر ما في كتب مناقبه كذب و بعضها ليس من الكرامة في شيء

وههنا مسألة يغفل الناس عنها بيناها في المنار مرارا وهي كيف يصح أن يكون اولياء الله الاحياء والاموات يتولون قضاء حاج المسلمين ودفع المضار عنهم وجلب المنافع لهم بما أوتوا من التصرف في ملك الله الواسع بخوارق العادات ونحن نرى المسلمين اسوأ حالا من سائر الامم ولا سيما الافرنج في صحتهم وسعة عيشهم وعزهم وعظمة ملكهم وسائر ما يطلبه الناس من هؤلاء الاولياء من أمور دنياهم فلماذا لا يتصرفون في الاسطول البريطاني مثلا؟ ونرى الذين لا يصدقون بقدرة هؤلاء الاولياء على التصرف في أمور الكون من المسلمين أنفسهم أحسن حالا في ذلك كله من المصدقين الذين وصفنا حالهم من قبل ، سواء كان سبب انكار هذا التصرف كمال التوحيد والعلم الصحيح بالكتاب والسنة والاعتصام بهما ، أو العلم بسنن الكون ونواميسه وتواريخ الملل وكون هذه الخرافات قد انتقلت من الوثنيين الى أهل الكتاب ومنهم الى المسلمين ، فكانت مصداقا لقول

النبي صلى الله عليه وآله وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم - أو - لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما عن أبي سعيد وغيره

تفاوت الارواح وما تسعد به وتشقى

هذا وان ما ذكرناه من تفاوت أرواح البشر في أصل الخلق له أصل في الكتاب والسنة يجب أن نعتبر به ، قال النبي صلى الله عليه وسلم «الناس معادن كمعادن الفضة والذهب خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا ، والارواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » رواه مسلم هكذا حديثا واحداً بهذا اللفظ عن أبي هريرة ورويا حديثين في كل من الصحيحين وفي بعض الفاظ الحديث الاول « الناس معادن في الخير والشر » أي إن أنفسهم في أصل فطرتها التي تؤثر فيها الوراثة كمعادن الذهب والفضة والنحاس والحديد والقصدير وغيرهن

وقال الله تعالى (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) فالنفس الانسانية مستعدة في أصل الفطرة للخير والشر وللفجور والتقوى ، على تفاوت في الاستعداد ، ولكن الفلاح والفوز بالسعادة منوط بتزكيتها بالعلم الصحيح وما يترتب عليه من العمل الصالح وهو المراد بقوله (ص) «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » والخيبة والشقاء منوطان بتدسيتها أي اهمال صقلها وتزكيتها بالعلم الصحيح والعمل الصالح وهو من دس الشيء في التراب مثلا . ولذلك قال البيضاوي في تفسير «دساها » أخفاها ونقصها بالجهالة والفسوق

فمدار السعادة والشقاء في الاسلام على صقل معدن النفس بالعلم والفضيلة أو دسه فيما يفسد جوهره من الجهالات والخرافات والرذائل ، ومن المعروف عند الناس كافة أن الجوهر الادنى يكون بجودة صقله اجمل وأنفع من الجوهر الاعلى الذي دس في الارض ولاسيما الرطبة ذات المواد الملحية ، ألم تر أن الذهب والفضة

يفسد جوهرهما بهذا الدس والاهمال ، حتى اذا عثر عليهما الناس لا يكادون يعرفونهما من حيث نرى الصفر المجلو والحديد المصقول يتلألآن كالمرآة فيكونان أجمل منظرا وأحسن مرتفقا وفائدة للناس من الذهب والفضة المدسيان في السبخة ؟ ولكن المعدن الاعلى اذا صقل كما يصقل المعدن الادنى فانه يكون أبهج منه منظرا وأكرم عند الناس استعمالا

فيجب ان نجعل هذه الحقيقة هي الاصل في تربية المسلمين وتعليمهم، وهي ان سعادة كل فرد من الافراد محصورة في تزكيته لنفسه بالعلم والفضيلة والعمل الصالح وشقاؤه بضد ذلك ، وان من فسدت نفسه وخبثت لا ينفعه زكاء نفس غيره لا من الاحياء ولا من الموتى لا في الدنيا ولا في الآخرة، حتى لو اعطي هؤلاء تصرفا في الكون لما بالوا بمن دسوا أنفسهم وتركوا هداية ربهم اتكالا على أن يعمل لهم بعض خلقه ما كلفهم ان يعملوه هم لانفسهم . ومصداق هذا الاصل ظاهر في الامم كلها لمن سار في الارض أو قرأ التاريخ قراءة عبرة

ولذلك كان فيما وعظ النبي صلى الله عليه وسلم أقرب الناس منه قرابة حين انزل الله تعالى عليه (وانذر عشيرتك الاقربين) ان دعا بطون قريش وعم وخص قال « يا معشر قريش انقذوا أنفسكم من النار فاني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا — الى ان قال — يافاطمة بنت محمد انقذي نفسك من النار فاني لا أملك لك ضرا ولا نفعا » رواه احمد والشيخان في الصحيحين وغيرهم من حديث أبي هريرة . وفي رواية لاحمد ومسلم وغيرهما من حديث عائشة انه قال يومئذ « يافاطمة ابنة محمد ياصفية ابنة عبد المطلب يابني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئا ، سلوني من مالي ماشئتم »

مدار النجاة فى الاسلام وفى الوثنية

وجملة القول أن مدار دين التوحيد على أن النجاة في الآخرة بالايمان والعمل الصالح ومدار أديان الوثنية على أن النجاة فيها بتأثير الصالحين عند الله في نجاء الضالين، وحسبنا قول الله عز وجل في وصف اليوم (يوم لا تملك نفس

لنفس شيئا والامر يومئذ لله) وحكم الله في ذلك اليوم مبين في كتابه كقوله الذي أنزله يوم تفاخر بعض الصحابة مع بعض أهل الكتاب (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب : من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ۞ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) والعبرة عند جمهور أهل السنة بالخاتمة فهم لا يقطعون بولاية شخص معين كالبدوي ولا بدخوله الجنة لان القطع يختص من ورد النص بأنهم أهلها كالسبطين سيدي شباب أهل الجنة والعشرة (ض) أجمعين

فيا أيها العلماء حسبكم إهمالا لامر عامة هذه الامة بينوا لها حقيقة دينها ، وأنذروها عاقبة هذه الخرافات التي أفسدت عليها دينها ودنياها ، أما ترونها تتسلل من الدين لواذا ، وتعلن الكفر والفسوق ثبات وافذاذا ، حتى صاروا يدعون الى الالحاد جهارا ، والى ترك الشريعة احتقارا لها واستكبارا ، زاعمين أن الاسلام دين خرافات وأوهام ، لا يمكن أن ترتقي به الامة في هذا الزمان ، ويستدلون على هذا بما أشرنا اليه من الضلالات والخرافات الفاشية في الامة ، ومشاركة الكثير من علمائها لها فيها بحضور هذه الموالد معها ، وترك اقامة شعائر الدين والدروس في المساجد لاجلها ، و بتأويل البدع والخرافات لها ، واضطهاد من تصدى من العلماء وطلاب المعاهد الدينية لانكارها كما وقع في دمياط وطنطا والاسكندرية وغيرها . فاتقوا الله وتداركوها قبل أن يخرج الامر من يدكم ، ولا عذر لكم بعد اليوم بما كنتم تعتذرون به من سلب الحكام لحريتكم ، فان الدستور الذي كرهه بعضكم قد أعطاكم من الحرية ما لم يكن لكم ، وهو لم يعط الملاحدة والفساق شيئا لم يكن لهم ، فقد كانت حرية الكفر والفسق تامة ؛ وحرية الاسلام صورية ناقصة ، على أن نقصها في مصر كان خاصا بالانكار على الحكام والاحكام ، دون ما يتعلق بارشاد العوام

ملخص الفتوى :

إن ذلك الخطيب قد قال على الله تعالى ما ليس له به علم ، فدخل فيمن

شرعوا للناس ما لم يأذن به الله، وقد دل القرآن والسنة على أن هذا من الشرك ، فانكار المنكر عليه صحيح ، فان كان متأولا أو معذورا بجهله عذرا يدرأ عنه الردة ، فعليه بعد العلم أن يتوب توبة صحيحة ، وأنا لا أكفر شخصاً معيناً لم أختبر حاله اختبارا تاما . واعلم ان أكثر مسلمي هذا العصر لم يلقنوا عقائد الاسلام كما أنزلها الله تعالى . فأكثرهم يجهلونه ولا يعرفونه ، والواجب على العالم أن يبين الحق وعلى من بلغه أن يحاسب نفسه ، والقاعدة عند العلماء ان الجهل ليس بعذر في دار الاسلام الا لحديث العهد به ، ولها فروع وجزئيات في باب الردة وغيرها دقيقة قد حققناها في مواضع من المنار ، والله أعلم